

تمتنعين عليّ إثارةً للشرف واستبقاءً للعفاف، فقد ذهب الشرف منذ زمن بعيد، وضاع العفاف منذ أقبلت أو قبل أن تقبلي على هذه الدار. وفي سبيل من ذهب الشرف؟ وفي سبيل من ضاع العفاف؟ في سبيل هذا البستاني الذي تهوينه، وما أشك في أنه يهواك. وكان هادئاً مطمئناً حين بدأ هذا الحديث، حتى لم أكن أشك أنه كان عابثاً متكلفاً يلتمس الوسيلة إلى استئناف ما بيننا من الخصام، ولكنه لم يكد يمضي في حديثه حتى أخذ هدوؤه يفارقه شيئاً فشيئاً، ولم يكد ينتهي إلى غايته حتى كان غضباً كله، وشرّاً مستطيراً يتمثل إنساناً يتكلم ويتحرك، زاهباً جائئاً متهيئاً للبطش لا يكاد يمتنع عنه إلا في جهد شديد.

على أنني لقيت عنفه هذا وسخطه كما تعودت أن ألقى كل ما قدم إليّ من ألوان العنف واللين، ومن ضروب السخط والرضا، ثابتة مطمئنة، وقلت له في هدوء: لا بأس عليك! خلّ بيني وبين الطريق، ثم تبين بعد ذلك أتجمعي بالبستاني جامعة، أو تصلني به صلة. فلئن خليت بيني وبين الطريق لآخذن أول قطار، ولولا أن أشق على مولاي وأكلفه ما لا يتكلف السادة للخدم لعرضت عليه أن يضعني في القطار وأن يرسلني إلى أي مدينة شاء، فأني لا أبتغي إلا أن أعيش في حيث آمن على شرفي هذا الذي لم يذهب، وعلى عفا في هذا الذي لم يضع، وإن ظن سيدي بي الظنون.

قال في غيظ يشبه الرضا وفي سخرية تشبه الجدّ: ما تزالين تذكّرين السادة والخدم! فقد علمت منذ حين أن ليس بيننا سيادة ولا خدمة، وإنما بيننا ما هو شرٌّ من ذلك وأبعد أثراً.

قلت: وما ذاك؟ قال: هو هذا ... ثم اندفع إليّ هاجماً كأنه الليث يريد أن يزدرد فريسته ازدرداً، ولكن المرأة لا تغلب إلا إذا أحببت، ولا تقهر إلا إذا أرادت، ولا تذعن إلا إذا رغبت في الإذعان. ومن أجل ذلك ارتدّ عني كما هجم عليّ؛ واستؤنف الخصام بيننا كما كان من قبل عنيفاً ليناً، وملتوياً مستقيماً، وفيه ما فيه من هذه الألوان التي تفسد حياة العاشقين وتزينها في وقت واحد.

وتتصل الحياة على هذا النحو، لا أجد لنفسي منها مخرجاً ولا يجد لنفسه منها مخرجاً، وإنما دُفع كل منا إلى صاحبه دفعاً، ورد كل واحد منا إلى صاحبه ردّاً، لا يستطيع أن يخرجني من داره، ولو قد أراد ذلك لكرهت أن أخرج من هذه الدار، ولا أستطيع أن أفارقه جهرةً ولا خفية، ولو قد فعلت لطلبني حيث أكون من الأرض. فليس عندي شك الآن في أن سيدي لا يشتهيني ولا يبتغي أن يظهر عليّ وينتصر على خصم